الصناعة السورية زمن الحرب الصليبية

بلغت الصناعة السورية زمن الحروب الصليبية شأواً بعيداً من الاتقان والاحكام بحيث كان يستبضعها تجار الافرنج ويحملونها الى بلادهم فيتهافت الامراء والاغنياء على احرازها ويحسب من اعظم مظاهر الترف والفخر ما يتنافس به الكبراء

وتفوّق تلك الصناعة على غيرها كان ولا ريب من العوامل الكبرى على اتساع تجارة البلاد وانماء ثروتها وحسبنا بما دوّنهُ عنها مؤرخو الافرنج والعرب وما تضمُّ عواصم العالم المتمدن من باقيات تلك الصناعات الشاهدة على ما بلغتهُ من التبريز في الظرف والاحكام

ومن المصنوعات السورية الخزف وقد وجد العربُ معاملهُ في وادي الفرات في القرن الثامن فنقلوهُ الى سائر ممالكهم وكانت هذه الصناعة قد اوشكت تزول وتعثورها الاثاثة في اخريات ايام الدولة الرومانية فاحياها العرب وعملوا على تحسينها واتقانها حتى تفوقوا بها واصبحت لا تماثل في بهاء الوانها واحكام نقشها

انبأنا الادريسي عن الآنية الخزفية التي كانت تصنع في يافا وبيروت وصور ودمشق وما انتهت اليهِ من جمال الصنعة بما كانوا يحسّنونها بهِ من الميناء ونقل الينا غيرهُ من المؤرخين عما حصلت عليهِ من الشهرة والصيت البعيد بحيث كانت فرنسا تستورد من المعمل منها بالميناء اقداراً كبيرة وقد ورد ذكرها في المعاهدة التي ابرمت سنة ١٢٢٣ بين جان ايلين وجمهورية جنوى

وكانت المدائن السورية ملأى بالمعامل التي تصطنع تلك الآنية الخزفية المجمّلة بالمينا من مثل السرج والصحاف والقوارير والاباريق والطاسات والصنوت وغير ذلك وقد ذكر المؤرخ راعي ان المسيو بيو وجد سنة ١٨٧٢ في دمشق بالقرب من مدفن اللاتين انقاض احد المعامل التي كانت تصنع هذه الآنية فاخذ منها عدداً وافراً يشهد لدمشق بتفوقها القديم في هذه الصناعة

والظاهر ان هذه الصناعة ظلّت مدة دولة المماليك من اخر الصناعات يجاري الصناع في اتقانها الى ان اكتسح المغول سوريا تحت امرة تيمورلنك واسرفوا في الجور والعسف وصحبوا معهم الى سمرقند ابرع صناعها فبقيوا هنالك فكان ذلك آخر العهد بصناعة الخزف في سورية

وصناعة البناء العربي ليست من اوضاع الامة العربية ولا نشأة رجالها وشأنهم معها شأن الرومان في صنائعهم ولما مكنوا المدائن وتربعوا دست الحضارة والتمدن دعتهم ضرورة العمران الى اشادة القصور واقامة المساجد فشرعوا لاول امرهم ينتهجون في البناء تارةً النهج الفارسي وطوراً النهج البزنطي الاّ انهُ ما طال الامر بهم حتى مزجوا الاسلوبين معاً فنجم عن

ذلك اسلوب جديد هو البناء العربي

واكثر المباني العربية واكثرها جمالاً المساجد والقصور وقد نظروا في تشييد القصور الى حالة البلاد من الحر فجعلوها اماكن نزهة ذات قاعات كبيرة تطل عرصات فسيحة مغروسة بالاشجار ترطب هواءها احواض الماء على انهم لم يتقنوا صناعة عمل الصور والتماثيل لان الاسلام ينهى عن رسم الاشكال البشرية فاستعاضوا عن التماثيل والصور بما كانوا يطلون به الجدران من الالوان الزاهية وبما يخطون عليها من الابيات والآيات

وكانت المدن السورية حائزة بالمعامل التي تحيك الانسجة الحريرية على انواعها وقد اشتهرت دمشق بديباجها المعروف عند الافرنج بدماسكو نسبةً اليها ونقل البنا الادريسي ان هذا المنسوج لجودة حوكه كانت تستضعهُ البلاد البعيدة وانهُ ليفضل في الظرف على ما ينسج في بلاد الروم ولا يقلُّ جمالاً عما تحوكهُ معامل اصبهان وجنديسابور

ولم تكن المدائن الاخرى من سوريا كحمص وطرابلس وانطاكية دون دمشق شهرةً في اصطناع الانسجة وبراعةً في حوكها وقد شهد الادريسي لصور بالنوع المعروف بالسندلي وتفوقها به على كل ما يصنع منهُ في سوريا . وامتازت طرابلس باصطناع الديباج والاطلس واتخذت منهما شامسة الكنائس حللها . وفي سنة ١٢٨٣ زار هذه المدينة الرحالة بيركارت من مونت سيون فوجد فيها زهاء اربعة آلاف نول لحوك الحرير والصوف

وظلَّ اهل انطاكية على احتراف الصناعة اليونانية السورية زمناً طويلاً حتى بعد الفتح الاسلامي واشتهروا في اصطناع الشب والانسجة الحريرية الموشاة بالخيوط الذهبيَّة والفضية وكان الافرنج يستبضعون منها اقداراً كبيرة وتتخذ منها حلل الكنائس يؤيد ذلك انهُ جاء في سجلات كنيسة القديس بولس في لندن راسنة ١٢٩٥ وصفٌ لقفارة من الديباج الانطاكي الاسود الموشيَّ بالخيوط الذهبية وجاءت تلك السجلات ايضاً على وصف ثياب القسوس من ديباج انطاكية وطرسوس

ومن مصنوعات سوريا الشملة وهي ضرب من القطيفة اشتهرت في اصطناعهِ طرابلس وطرطوس وهو على اربعة انواع النوع الاول يحاك من صوف الجمال والثاني من شعر الماعز والثالث من صوف الغنم والرابع من مشاقة الحرير. وقد روى لنا مؤرخو الافرنج عن رغبة الاوربيين الشديدة في هذا المنسوج وتسابق تجارهم لاستبضاعهِ من سوريا يبيعونهُ لاهل بلادهم فيربحون الاموال الطائلة لاقبال الناس على ابتياعهِ وتنافسهم في اقتنائهِ حتى ان ملك فرنسا لويس التاسع طلب الى وزيرهِ جوانفيل يوم اتى لزيارة كنيسة السيدة في طرطوس ان يبتاع

له من شمالات تلك المدينة عدداً وافراً فيهديها الى رهبان الاديرة لاسيما رهبان مار فرنسيس

وكان اهل سوريا من الوطنيين والافرنج معاً زمن الحرب الصليبية يتخذون القناطر في منازلهم ودورهم. ذكر وليم الصوري انهم كانوا يأتون بها من بغداد وبلاد فارس واسيا الوسطى ويؤخذ من هذه الرواية ومما ذهب اليه دفرمري Defrémery ان اسم القناطر مأخوذ من اسم القرية التي تصطنعهُ حوالي بغداد وهذه الصناعة ليست من مستحدثات سوريا وانما نقلت الى شماليها فيرع الاهلون فيها وما برحت حتى عهدنا هذا في جهات طرطوس وبلاد الحصن

ولم يكن استخراج السكر معروفاً عند الاوروبيين بدليل ان الصليبيين يوم فتحوا طرابلس ووجدوا فيها قصب السكر استرأوا طعمهُ واعجبوا بما يستخرجهُ السوريون منهُ ونقلوا قصائبهُ الى صقلية وايطاليا ولقد كان السوريون يجيدون عمل السكر وامتازت صور في اصطناعهِ على سائر المدن السورية

وكان استعمال الصابون شائعاً بين السوريين والافرنج في القرن الثالث عشر ومصانعهُ كثيرة في انطاكية وطرطوس وعكاء وطابلس وطرابلس وللصليبيين اهتمام كبير بهذه الصناعة يضارع اهتمامهم بالمدابغ والمصابغ على ان احتراف الصباغة كان من خصائص اليهود في جميع المدن السورية

وكانت بلاد الجليل تحوك الحصر على ان افضل انواعهِ ما كان يصطنع في طبرية ويحوكونهُ هناك من نبات لهُ سوق طويلة ذات عقد تمتدّ على وجه الارض وينبت في بلاد ساسان وبالقرب من طبريا

ويؤخذ من روايات المؤرخين ان التعدين في سوريا كان مقتصراً على الحديد وكانت جبال لبنان التي حوالي بيروت غنيّة بمناجمهِ وكان الاهلون منذ القرن الثاني عشر يمدنونهُ ويصدرون منهُ على رواية ابن بطوطة اقداراً كبيرة من ميناء بيروت. وذكر الادريسي ان حديد لبنان كان في القرن الثاني عشر كثير الاستعمال تستوردهُ مصانع دمشق الشهيرة لاصطناع الاسلحة

واخبر وليم الصوري ان صور وانطاكية وبيروت وطرابلس ودمشق وعكاء من اشهر مدائن سوريا في اصطناع الزجاج. وبلغت هذه الصناعة في العصور الوسطى شأواً بعيداً في الظرف والاحكام ومن معامل هذه المدن خرجت تلك الكؤوس والصحاف والقوارير والمصابيح المجملة بالميناء والتي تزدان بها متاحف اوربا اليوم وهي تشهد للسوريين بالتبريز في هذه الصناعة على ان اقدم المصابيح الزجاجية ما صنع في القرن الحادي عشر وكان زخرفها ثميناً وغاية في الظرف وظاهرها مقسماً بخطوط افقية يتخللها حروف مرسومة بالالوان الوردية وموشاة بالميناء ذات الالوان الجميلة

وكانوا احياناً يرسمون الحروف على صحن الميناء الزرقاء ويجعلونها كبيرة بيضاء وكثيراً ما كانوا يزخرفون الانية الزجاجية برسوم بعض الحيوانات كالنسر والاسد وشعار امراء تلك الايام

ومن اجمل الكؤوس الزجاجية التي وجدت حديثاً كاس للامير بدر الدين الظاهري الذي كان امير الجيوش السورية في النصف الاخير من القرن الثالث عشر ايام سلطنة الملك بيبرس

وكانت اوربا خلال العصور الوسطى تستبضع الآنية الزجاجية من جميع معامل المدن السورية وكانت تعرف عندها باسم الزجاج الدمشقي ويتخذها الاغنياء من مظاهر الابهة . ومما رواه ثقات المؤرخين ان عملة الزجاج من اهل البندقية ظلوا امداً طويلاً يستجلبون الزجاج الخام من سوريا ليسبكوا منهُ الآنية في معاملهم وانهم كانوا يأتون بالعملة السوريين بغية ان يأخذ العملة الايطاليون عنهم طرق الاجادة فيحاكوهم في صناعتهم

على ان اثمر المصنوعات السورية وادقها صنعةً وابعدها شهرة ما اصطنع من المعادن كالسيوف الدمشقية التي عرفها الاوربيون في الحرب الصليبية واعجبوا بها جدًّا وتسمى عليها سائر الآنية المصنوعة من النحاس والشبهان المنقوش عليها شعار الامراء والمحفورة بكتابة تعلن اسم صانعها والذي صنعت لهُ وهي المعروفة بالصناعة الظاهرية

وكانوا يرصعون المصنوعات المعدنية من مثل الطسوت والاباريق والطاسات والشماعدين والمصابيح والطباق وغيرها من الادوات بالذهب او الفضة او بمعدن آخر ثمين وذلك بان يحفروا في ظرف الاناء ثلماً عميقاً يحشونهُ بخيوط من الذهب او الفضة وعندهم ايضاً ضرب آخر من الترصيع عادي وهو ان يحمى المعدن بالنار شديداً ثم يحفر فيهِ بسكين خطوطاً صغيرة ويرسم الشكل بآلة حادة تغرب بقلم الحفر ثم يعدّ خيط ذهبي او فضي ويلزز في الثلم باعتناء بآلة نحاسية

وفي متاحف اوربا اليوم عدد وافر من الآنية التي صنعت في القرنين الثاني عشر والثالث عشر وقد حفر عليها اسماء الامراء من العرب والافرنج وانفس تلك الآنية ما اصطنع في القرن الثالث عشر في دولة المماليك زمن الملكين المعظمين نور الدين وصلاح الدين

وقد اشتهرت بلاد الموصل في اصطناعها بين اشتهار سوريا ثم نزح نفر من اهل هذه الحرفة عن الموصل واقاموا في سوريا وعصر على احترافها بدليل ان عدداً وافراً من الآنية النحاسية الموجودة في المتاحف الاوروبية منقوش عليها اسم صانعها مع ذكر بلده من ذلك طست كبير في متحف باريز منقوش عليهِ ما يأتي : نقش علي بن حسين الموصلي بالقاهرة سنة اربع وثمانين وستمائة : واباريق اخر للملك الناصر نقش عليهِ هكذا : نقش حسن بن محمد الموصلي في دمشق سنة ٦٥٩ هـ

ولا خلاف في ان الموصل بلغت شأواً بعيداً من الشهرة في اصطناع النحاس المرصع وفي حفر الرسوم البشرية والحيوانية بين ان صناع مصر والشام ظلوا الزمن الطويل لا يتجاوزون حدود الدين ولا يحفرون الرسوم البشرية مقتصرين في تجميل الآنية على النقوش البسيطة وحفر بعض الكلمات. وفي اواسط القرن الثالث عشر طفقوا يحفرون على ظاهر مصنوعاتهم رسوم بعض الحيوانات المتخذة شعاراً من مثل الاسد والنسر الا ان مصنوعات السوريين للافرنج من الصليبيين حفر عليها الرسوم البشرية وشيء من الرموز المختصة بالدين المسيحي وقد قال المؤرخ راي ان اجمل آناء رآهُ من هذا النوع شمعدان بديع الصنعة عمل لاحدى الكنائس وقد حفر عند قاعدته رسم عماد السيد المسيح. والمرجح ان الحافرين نقل هذه الصور والرموز من النصارى السوريين

اما الصياغة فلم يوفها رجال العلم حقها من البحث ولم يبق لهم الدهر من بقاياها ما يفسح المجال للمتكلمين عنها ولكن لم يعدم العلماء من مجلات كنيسة القديس بطرس في انطاكية ومن الآثار القليلة التي انتهت اليهما ما يصل بهم الى معرفة شيء مما بلغتهُ في سوريا زمن الحرب الصليبية

ولقد كان في القدس شارع خاص للصياغة ولم يحق احتراف هذه المهنة الا لنفر من الناس يتعاطونها باجازة من الملك وقد اشتهر هؤلاء الصاغة بالنقش على الحجر الصلد واستخدموا لذلك المناس على ما روى الادريسي وهذا الضرب من النقش وتزيين فصوص الخواتم برسوم الحيوانات المتخذة شعاراً هو من اوضاح السوريين على ما يذهب اليه بعض مؤرخي الافرنج

وجملة القول ان السوريين برعوا في الصياغة شأنهم في سائر الصنائع حتى كان امراء الافرنج يقصدونهم لصوغ حلاهم. وقد اورد المؤرخ راي عن مجلات ذخائر كنيسة انطاكية جدولاً يحتوي على اسماء ما صاغهُ لها السوريون من الآنية الفاخرة مما يرجع تاريخهُ الى سنة ١٢٠٩ ومن تلك المصوغات صليب كبير من الذهب المرصع بالجواهر والحجارة الكريمة وانجيلان مصفحان بالذهب المرصع وكتابا الرسائل مصفحان بالفضة وغير ذلك شيء كثير بالغ منتهى الاحكام في الصنعة

ولا يتسع لنا المقام لتعداد كل ما اصطنع السوريون وما وصلت اليهِ مصنوعاتهم من الظرف والاحكام فنكتفي بالقول ان سوريا كانت استاذة اوروبا في الصناعات كما كانت استاذتها في العلم والزراعة والتجارة ولكن

تغيرت البلاد ومن عليها فوجه الارض مغبر قبيحُ

ص . ي